

الجوهر الإلهي الداخلي: استعادة الشرارة المقدسة من رماد الإمبراطورية

عبر آلاف السنين، سعت البشرية لفهم مكانها داخل الخليقة. من ضفاف النيل إلى جبال الأنديز، من مكة إلى أثينا، اعترفت تقاليد روحية وفلسفية لا حصر لها بحقيقة عميقة: يقيم داخل كل إنسان جوهر إلهي—شرارة مقدسة تميلنا نحو الرحمة، وعدم العنف، والانسجام مع العالم الحي. هذا النور الداخلي، سواء سُمي فطرة، أو أتمان، أو لوغوس، أو طبيعة بوذا، هو الخيط الذي يوحد الأديان والفلسفات وحكمة الشعوب الأصلية. ومع ذلك، في العصر الحديث، غُطيت هذه الحقيقة بأنظمة السيطرة والجشع والاستغلال—أنظمة ابتعدت عن الجوهر الإلهي لتعبد الربح والسلطة.

الشرارة الإلهية في التقاليد الروحية المعاصرة

في أديان العالم الحية، ليست الشرارة الإلهية مجرد استعارة—إنها واقع أخلاقي يطالب بالعدالة والرحمة والإدارة.

في الإسلام، يعلن القرآن أن كل إنسان يولد على الفطرة (30:30)—طبيعة أولية متناغمة مع الحق والرحمة وعبادة الخالق. ترسخ هذه الفطرة الخلافة، واجب الإدارة: حماية الحياة، وتكريم الخليقة، ومقاومة الفساد. عندما يقدم المسلمون الزكاة، ويحمون من القسوة، ويدافعون عن المظلومين، فهم لا يمارسون مجرد صدقة—بل يتصرفون كحراس للأمانة الإلهية. في عالم يدفعه الربح والسيطرة، تصبح الفطرة مبدأً ثوريًا: مقاومة جميع الأنظمة التي تستغل الطبيعة أو الحيوانات أو البشرية.

الهندوسية تكشف عن هذه الحقيقة نفسها في الأتمان، الذات الإلهية داخل كل كائن، غير منفصلة عن براهمان، الواقع الأسمى. التحية ناماستي—"أحني للإلهي فيك"—هي اعتراف روحي بالإلهية المشتركة. أهيمسا، مبدأ عدم العنف، ينبع من هذا الفهم: إيذاء كائن آخر هو إيذاء النفس. في ثقافة تقيس القيمة بالاستهلاك والفتح، يدعو الأتمان إلى الاحترام المقدس، إلى رؤية جميع أشكال الحياة كتعبيرات عن المصدر الإلهي نفسه.

اليهودية تعلن أن البشرية خلقت بتسليم إلهيم—على صورة الله (التكوين 1:26-27). لذا، تمتلك كل حياة بشرية كرامة إلهية. تعلم المشناه: "من يدمر حياة واحدة يدمر عالمًا كاملاً." هذا التأكيد الجذري على القيمة المقدسة يطالب بمعارضة أي نظام—استعماري، سياسي، أو اقتصادي—يقلل من قيمة الحياة من أجل الربح أو السلطة.

المسيحية تعلم أن النور الإلهي، اللوغوس، "ينير كل من يأتي إلى العالم" (يوحنا 1:9). حب الجار كنفسك (متى 22:39) ليس مثالاً سلبيًا—بل أمر أخلاقي لمواجهة القسوة والظلم أينما ظهرا. أصوات الإيمان الأكثر جذرية، من يسوع إلى فرنسيس الأسيزي، اعترفت بالحيوانات والأنهار وحتى الرياح كأقارب. ومع ذلك، اليوم، غالباً ما تُبرر المجتمعات التي تسمي نفسها مسيحية الحرب والاستغلال والدمار البيئي—التنقيض التام لتعليم المسيح.

في البوذية، تعلم عقيدة طبيعة بوذا أن جميع الكائنات تحمل إمكانية التنوير. الرحمة وعدم العنف ليست فضائل ملائمة—بل ضرورات كونية. إيذاء الحياة يغطي استيقاظنا الخاص. البوديساتفا، الذي يؤخر تحرره الشخصي لمساعدة جميع الكائنات، يجسد هذه الرحمة الإلهية بالكامل.

في تقاليد الويكا والوثنية، تشرق الشرارة الإلهية من خلال الأرض الحية نفسها. أمر الريد—“إن لم يؤذ أحداً، افعل ما تشاء”—يعبر عن رؤية أخلاقية تربط بين الحرية والمسؤولية. احترام الوثنيين للعناصر، والقمر والفصول، يحافظ على حكمة بيئية قديمة أوشكت الحضارة الحديثة على إطفائها.

لكن بينما تدعو هذه التقاليد البشرية نحو الانسجام، ابتعد العالم الحديث—خاصة الغرب الصناعي الاستعماري. أصبح السعي وراء الربح ديناً للتدنيس. تُذبح الغابات، تُسمم المحيطات، تُعذب الحيوانات في المصانع، وتُشن الحروب باسم المكاسب الاقتصادية أو الجيوسياسية. دُفنت الجوهر الإلهي تحت أصنام المادية والإمبراطورية.

لا مكان أوضح لهذا من غزة، حيث تُقتل بساتين الزيتون—رموز السلام والرزق الإلهي—وتُسحق مجتمعات بأكملها تحت آلة الاحتلال. هنا، يكشف صمت العالم عن فقدان جماعي للشرارة المقدسة. اضطهاد الشعب الفلسطيني، الذي يتم بتواطؤ القوى الغربية، ليس جريمة سياسية فحسب—بل كارثة روحية، دليل على ابتعاد البشرية عن طبيعتها الإلهية.

التقاليد القديمة والأصلية: العيش في توازن مقدس

قبل صعود الإمبراطوريات، عاشت أقدم حضارات البشرية معترفة بالنفس الإلهي الذي يحيي كل الحياة. كانت أساطيرها وطقوسها وهياكلها الاجتماعية منسوجة حول التوازن الكوني والعدالة والرحمة.

في الفكر السومري والأكادي، شكّلت البشرية من نفس إنليل الإلهي وأوكلت بحفظ مي—القوانين المقدسة التي تحكم الكون والمجتمع. انتهاك هذه المبادئ لم يكن مجرد اضطراب اجتماعي بل فساد روحي.

كونيات البابليين في إنوما إيلش رأت البشر شركاء في الحفاظ على الانسجام الكوني. كانت حياتهم الأخلاقية متشابكة مع النظام الإلهي، مع التركيز على رعاية الضعفاء والتوافق مع دورات الطبيعة.

في مصر، كان مبدأ ماعت—الحق والعدالة والتوازن—نبض الحضارة. العيش بظلم كان يفكك الكون. حُكم الفراغة ليس بقوتهم بل بحفظهم ماعت. إيقاعات النيل، فن المعابد، وطقوس الزراعة كلها عكست هذه البيئة الأخلاقية.

اعتبرت الديانة والفلسفة اليونانية الروح إلهية وأبدية، نقاؤها محافظ عليه بالفضيلة والاعتدال. احترام الرومان لنومن، الوجود الإلهي في كل شيء، رعى ببيتاس: الواجب والامتثال والانسجام مع الآلهة والطبيعة.

بين النورس، عبر مفهوم ويرد عن إحساس مقدس بالقدر والترابط—الحياة كشبكة من النتائج الأخلاقية. التصرف بغير شرف أو استغلال الطبيعة كان يفكك خيوط الوجود.

لكن لا مكان جسدت فيه هذه الوعي بالترابط المقدس أكثر من بين الشعوب الأصلية. فهم الألغونكوين لمانيتو رأى الروح في كل كائن—حجر، نهر، طائر، أو ريح. وصفت كونيات المايا الحياة كهدية مستدامة بالتبادل. أنتج احترام الإنكا لباتشاماما (الأم الأرض) أنظمة إدارة بيئية متقدمة. يكرم الشينتو في اليابان كامي، الأرواح الإلهية داخل الطبيعة؛ يعلم التاوية في الصين وو وي، التوافق السلس مع الطاو.

شاركت هذه التقاليد ليس فقط احترام الحياة، بل أيضاً علاقة جذرياً مختلفة بالموت. لم يُخش الموت—بل فُهم. بالنسبة لهم، كان الموت عودة إلى الكل المقدس، استمراراً للعلاقة مع الأرض والأسلاف والإلهي. العيش بحق كان يموت بسلام، مع العلم بأنه لم يخن نظام الحياة.

هذا يقف في تناقض حاد مع الكثير من العقلية الغربية الحديثة، حيث يُخشى الموت، يُتجنب، يُعقم. لماذا؟ لأن الكثيرين يعرفون في أعماقهم أنهم عاشوا بخيانة للمقدس. حضارة تدمر الغابات، تعذب الحيوانات، وتشن حروباً لا نهاية لها لا يمكنها مواجهة الموت بسلام. خوفها ليس متجذراً في الغموض—بل في الذنب. في مكان ما داخل، حتى العقل الأكثر علمانية يشعر بالحساب الإلهي. خوف الموت هو خوف الحكم—ليس من فوق، بل من داخل.

التقاليد الفلسفية: العقل كنور مقدس

حتى التقاليد العقلانية للفلسفة، غالباً ما تُفصل عن الدين، تتردد صدى حقيقة الشرارة الإلهية. تحدث **سقراط** عن **دايمونيون** الخاص به—صوت داخلي إلهي يرشده نحو العدالة. علم **أفلاطون** أن منزل الروح الحقيقي هو عالم الخير الأبدي، وأن المعرفة والفضيلة أعمال تذكر. وجد **أرسطو** ازدهار الإنسان (**يودايمونيا**) في ممارسة العقل والصدقة والتوازن مع الطبيعة بانسجام.

الرواقية، بإيمانها **باللوغوس**—النظام العقلاني الإلهي المنتشر في الكون—قدمت أخلاقيات روحية للقبول والفضيلة والرحمة. العيش خلافاً للطبيعة كان العيش خلافاً للعقل نفسه.

استمرت **الكونفوشيوسية** وفلسفة **التنوير** في هذا الخط: **كونفوشيوس** من خلال **رين** (الإنسانية) و**كانط** من خلال القانون الأخلاقي داخل. ومع ذلك، حتى هذه التقاليد، عند تجريدتها من تواضعها الروحي، استُخدمت من قبل الإمبراطوريات الاستعمارية لتبرير السيطرة تحت ستار “الحضارة”. العقل، عند فصله عن الاحترام، يصبح أداة للفتح.

النتائج الثقافية لفقدان الشرارة الإلهية

الانحدار الروحي للعالم الحديث ليس لغزاً—إنه النتيجة المنطقية لحضارة استبدلت النظام الإلهي بحساب اقتصادي. حيث سعى القانون القديم إلى الانسجام، يرسخ القانون الحديث الملكية. حيث كرم الطقوس الأصلي التبادل، يفرض التجارة الحديثة الاستخراج. النتيجة دمار كوكبي: غابات مدمرة، محيطات مختنقة، ومليارات الكائنات الواعية مذبوحة للراحة.

الإمبراطوريات التي بررت توسعها ذات يوم كمهمة إلهية تستمر في العنف من خلال الأسواق والجيوش. غزة، التي كانت جزءاً من مهد النبوة في العالم، الآن مدمرة تحت نظر الأمم التي تسمي نفسها مسيحية أو ديمقراطية. تتلأأ الشرارة الإلهية وسط دخان الطائرات بدون طيار وصرخات الأطفال. تدنيس شجرة الزيتون—رمز السلام والصمود—هو تدنيس المقدس نفسه.

وخلف كل ذلك يلوح رعب الموت—رعب ولد ليس من المجهول، بل من غير المكفر عنه. عالم يدمر الخليقة يعرف أنه أذنب. خوفه ليس ميتافيزيقياً—بل أخلاقياً.

التقارب الأخلاقي: الإدارة والرحمة كأعمال مقاومة

تتقارب جميع التقاليد على أمرين مقدسين: **الإدارة والرحمة**. أن تكون مديراً هو حراسة المقدس؛ أن تكون رحيماً هو التصرف كسفيره. هذه ليست فضائل ضعف بل أسلحة الإلهي ضد الإمبراطورية.

خلافة الإسلام، **أهيمسا** الهندوسية، **بتسليم إلهيم** اليهودية، **أمر المحبة** المسيحية، **كارونا** (الرحمة) البوذية، **ريد الويكا**، **مي** السومرية، **ماعت** المصرية، **مانيتو** الألغونكوين، **تشي** التاوية—كلها تدعونا إلى التمرد نفسه ضد القسوة والجشع.

استعادة الإدارة هي مواجهة القوى التي تربح من الموت. ممارسة الرحمة هي رفض التواطؤ في الأنظمة التي تدمر الحياة. كل عمل لطف، كل حماية لغابة، كل رفض لإنسانية الآخر هو عمل عصيان روحي.

الشرارة الإلهية والموت: ذكرى الروح

لا ترشد الشرارة الإلهية الحياة فحسب—بل تعدنا للموت. في تقاليد العالم المقدسة، التنوير ليس هروباً بل إدراكاً: **الجنة، موكشا، نيرفانا، السماء، فالهالا، تالوكان، سمرلاند، أو سلام الرواقي** ليست عوالم بعيدة بل حالات روح مستحقة من خلال عدم العنف والرحمة والانسجام. الموت، بالنسبة لمن يكرم الشرارة، ليس انقطاعاً—بل عودة إلى المنزل، عودة إلى الكل المقدس.

مزارع فلسطيني، يعيد زرع شجرة زيتونه وسط الركام، يسير هذا الطريق. نضاله هو عدالة **الفطرة، إلهية الأتمان**، طاقة **تيوتل**، تبادل **مانيتو**—نذر **بوديساتفا** حي. لا يخاف الموت؛ بل يتجاوزه.

لكن حيث تُخان الشرارة—حيث تحترق الغابات، تصرخ الحيوانات في الأقفاص، ويُدفن الأطفال تحت القنابل—يصبح الموت رعباً. ليس لأنه مجهول، بل لأنه معروف. الروح، في أعماق **فطرتها**، تتذكر. تعرف السجل. تعرف أن بستان الزيتون كان مقدساً. تعرف أن ضربة الطائرة بدون طيار كانت كفرًا.

السعي للتنوير هو العيش بدون خوف من الموت. خوف الموت هو الاعتراف بأنك لم تعيش أبداً.

الخاتمة: استعادة نار الإلهي

الجوهر الإلهي—**الفطرة، الأتمان، اللوغوس، تيوتل، كامي، بتسليم إلهيم**—ليس فكرة مجردة بل حضور الحق الحي داخل جميع الكائنات. استعادته هي مقاومة كل إمبراطورية، كل إيديولوجيا، كل اقتصاد ينكر قدسية الحياة.

لا تزال الشعوب الأصلية تعيش هذه الحقيقة من خلال البساطة والتبادل. يستدعي المسلمونها من خلال الإدارة والعدالة. البوذيون والهندوس والمسيحيون واليهود والوثنيون يحملون شظايا من النور نفسه. إنه النور المدفون الآن تحت ركام غزة، رماد الغابات، وصمت من يعرفون أفضل لكنهم لا يفعلون شيئاً.

تحترق الشرارة الإلهية أكثر سطوعاً في المقاومة: في الأم التي تحمي طفلها، في المزارع الذي يعيد زرع بستانه الزيتوني، في المتظاهرين الواقفين أمام الآلة. استعادة العالم هي تذكر ما خُلِقنا له: الرحمة، عدم العنف، والانسجام. أي شيء أقل هو كفر ضد الخليفة.

وعندما يأتي الموت—كما يجب—لا يجب أن نجدنا خائفين، بل مستعدين. مستعدين لمواجهة ليس العقاب، بل الحقيقة. لنقول: كرمت الشرارة الإلهية. لم أدمر، حميت. لم أستغل، أحببت.

هذا معنى الإيمان. هذا الطريق العودة إلى الله.